

المرأة ودورها في الحياة العلمية والثقافية بالمغرب الأوسط (الجزائر) الدولة الزيانية أنموذجا.

Women and their role in the scientific and cultural life in the Central Maghreb (Algeria), the Zian state is a model.

صديق بن حليمة^{1*}، إبراهيم بحاز بكير²

¹ جامعة غرداية (الجزائر)، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، seddik.benhalima@univ-ghardaia.dz

² جامعة غرداية (الجزائر)، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، hazhistory@yahoo.com

تاريخ النشر: 2021 / 04 / 20

تاريخ القبول: 2021 / 04 / 07

تاريخ الاستلام: 2020 / 11 / 09

ملخص:

شملت الحركة العلمية والثقافية في تلمسان إبان الدولة الزيانية جميع فئات وأطياف المجتمع فشارك الجميع في إنعاشها، ومن شرائح المجتمع الزياني، والتي كان لها حضور في الحركة العلمية، المرأة حيث أخذت بحظ وافر من النشاط الثقافي. فعلى غرار مشاركتها في الحياة السياسية فقد أسهمت في الحياة الثقافية، وبرهنت على علو كعبها في هذا الميدان، فبرزت عدّة نسوة في هذا الميدان من خلال الآثار التي تركتها، فمنهم عالمة والفقيهة والشاعرة. الكلمات المفتاحية : تلمسان؛ الدور الثقافي؛ الدولة الزيانية؛ المرأة.

Abstract:

The scientific and cultural movement in Tlemcen during the Zian state included all classes and spectrums of society, so everyone participated in its revitalization, and from the segments of the Zayani society, which had a presence in the scientific movement, the woman received ample luck from cultural activity. Cultural, and it proved its high heels in this field, so several women emerged in this field through the effects that it left, including the scientist, the jurist and the poet..

Keywords: cultural role Tlemcen, the adulterous state women.

مقدمة

مثل المغرب الأوسط (الجزائر حالياً) في الفترة الوسيطة محطة تاريخية بارزة في تاريخ المغرب الإسلامي وسجل حضوراً قوياً في كل مجالات الحياة (السياسية والعسكرية والعلمية والثقافية)، بداية باستقلال أول دولة بالمغرب الإسلامي ممثلة في الدولة الرستمية، كما شكلت مدنه (تيمرت، تلمسان، بجاية) حواضر إسلامية هامة، وبخاصة في المجال العلمي والفكري والثقافي، فأرست بضلالها على المغرب الأوسط بوجه خاص والمغرب الإسلامي بشكل عام، وقد ساهم في ذلك الجو العام الذي عرفه المغرب الإسلامي في تلك الحقبة ولوج العديد من الأفكار والعقائد الدينية التي بدورها أخصبت الميدان العلمي والفكري والثقافي، كما ساهم حكام الدول التي تعاقبت على حكم المغرب الأوسط بنصيب وافر في إثراء حركة التعليم، مما أدى إلى بروز العديد من الفقهاء والعلماء الذين انبروا لتحصيل للعلم وتلقيه، فانكب الناس على طلب العلم والحث عليه، فأنشأت لأجل ذلك عدّة مؤسسات تعليمية كثيرة ومتنوعة، مما أثر ذلك إيجاباً على الحياة العلمية فأفرزت نشاطاً علمياً واضحاً ومميزاً، الأمر الذي أدى إلى انعكاس صورة حسنة حول الواقع التعليمي للمغرب الأوسط، ولم يقتصر طلب العلم على فئة الرجال بل ساهم في ذلك نساء برزن في هذا الميدان وتركوا أثراً من خلال نبوغهم في المجال العلمي والثقافي، فاحتضنت تلمسان عدّة عالمات وفقهات وحتى شاعرات كان لهن نصيب في النشاط الفكري، وقد ساعد هذه الطبقة على الظهور عدة عوامل منها الحركة العلمية النشطة بتلمسان إضافة إلى الجو الملائم الذي وفره سلاطين بني زيان من تشييد للمدارس والمؤسسات التعليمية، وعليه سنعالج في هذه المداخلة دور وإسهامات المراة الجزائرية في حركة التعليم في الفترة الوسيطة في الدولة الزيانية مبرزين نماذج عن تلك الشخصيات وعلى ضوء ذلك سنخرج في هذه المداخلة على العناصر التالية: الحياة العلمية بتلمسان في عهد الدولة الزيانية ثم نتناول المؤسسات التعليمية بتلمسان ودورها الفعال في تنشيط الحركة العلمية، ثم نخرج على دور السلاطين في تشجيع الحركة العلمية والدور التعليمي والثقافي للمراة التلمسانية وذلك من خلال إبراز بعض النماذج من النساء في تلمسان، وأخيراً خاتمة تضم نتائج هذه الدراسة.

الحياة الثقافية والعلمية في تلمسان:

شكلت تلمسان أهم قواعد المغرب منذ الفتح الإسلامي إلى قيام الدول المستقلة بالمغرب الإسلامي وبحكم موقعها الاستراتيجي أهلها بأن تكون عاصمة لبني عبد الواد عند انفصالهم عن الموحيدين بالمغرب الأوسط، وجاء ذكر تلمسان في العديد من المصادر الجغرافية فالحميري يورد في شأنها " وهي قاعدة المغرب الأوسط، ومدينة تلمسان أول بلاد المغرب، وهي على طريق الداخل والخارج منه ولا بد من الاجتياز عليها في كل حال (الحميري، 1984، صفحة 135)، أما البكري فأرود " وهذه مدينة تلمسان قاعدة المغرب الأوسط. (البكري، صفحة 76)، وذكر ابن خلدون أيضاً المغرب الأوسط في حديثه عن رحلته من الأندلس إلى بجاية " وكان بنو عبد الواد ملوك تلمسان والمغرب الأوسط (ابن خلدون، 2004، صفحة 92).

وعاشت مدينة تلمسان كل أطوار تاريخ المغرب الإسلامي فقد اتخذها الأدارسة قاعدة عسكرية هامة من حيث الناحية الدفاعية للجهة الشرقية لمملكته، ثم اتخذها بنو سليمان من بني عمومتهم عاصمة لإمارتهم، أما أثناء الوجود الفاطمي فقد خضعت لسلطتهم المطلقة، وبعد رحيلهم إلى مصر تحولت تلمسان إلى حكم بني زيري ثم إلى بني حماد، لكن بعد خضوع المغرب الأوسط من الناحية الغربية لسلطة المرابطين كانت تلمسان من أهم مدن المثلثين الذين أولوها عناية فائقة، وبعد ظهور الموحيدين على ساحة المغرب الإسلامي شكلت تلمسان لهم أهم مدينة، غير أن هذا لم يدم طويلاً فبعد التفكك الذي عرفته دولة الموحيدين، انقسم المغرب الإسلامي إلى ثلاث دول، استقل بنو مرين بالمغرب الأقصى وورثوا عن الموحيدين عاصمتهم، كما استقل الحفصيون بالمغرب الأدنى، أما بنو عبد الواد فاقتطعوا المغرب الأوسط واتخذوا من تلمسان عاصمة لهم.

إن تعاقب هذه الدول على مدينة تلمسان مكن لها وأهلها بأن تتحول إلى حاضرة ثقافية، أرست بضلالها على المغرب الإسلامي وشكلت بذلك خلاصة المغرب الأوسط من الناحية الفكرية والعلمية والثقافية، وتجلت ذلك من خلال ما خلفته حاضرة تلمسان من منتوج فكري وحضاري، وبخاصة في عهد الدولة الزيانية فبرز العديد من العلماء والفقهاء أوردتهم كل من ابن مريم في البستان، وأحمد بابا التمبكتي في الديباج، ونذكر على سبيل الذكر لا الحصر: أبي العباس أحمد بن محمد بن مرزوق، ومحمد بن يوسف السنوسي، وابن مرزوق الحفيد، والمقري صاحب نفح الطيب وغيرهم كثير، وقد استفاد أهل تلمسان مما كانوا يحملونه من علم وفكر وحضارة، فكانت لهم مشاركة جادة في تطوير الحياة الثقافية والاجتماعية والاقتصادية وترقيتها بالمدينة (فيلاي، 2002، صفحة 319)، وقد عرف الأدب الزياني في هذه الفترة ازدهارا كبيرا، وكان من بين ملوك هذه الدولة الأديب والشاعر، وكانوا يحرصون على تنشيط الحركة العلمية والأدبية، فأصبح البلاط الزياني زاخرا بالأدباء وكان الكتاب والشعراء ينطقون بمجد هذه الدولة ويمدحون ملوكها، (بن قدور، 2014، صفحة 18) ولعل نشاط الحياة الثقافية والعلمية بمدينة تلمسان يرجع إلى طريقة التدريس التي لوحظت هناك، والتي كانت تعتمد بالدرجة الأولى على البحث والتفكير، وعدم الاكتفاء بالحفظ، وهذا الجو كفيل أن ينشأ عنه أو يتخرج في مدارس علماء نوابغ، قادوا الحركة الأدبية والعلمية، (ميكوي، 2001، صفحة 132) وتعود المكانة الرائدة التي كانت تحتلها تلمسان إلى النزعة العلمية والثقافية، التي يتميز بها أهلها وحكامها، ورعايتها للفنون والآداب والعلوم الشرعية على وجه الخصوص، وتشجيعهم للعلماء والفقهاء والأدباء، واستقطابهم واستقبالهم، من مختلف الحواضر المغربية والأقطار الإسلامية، لا سيما الأندلس (بن سهلة، 2014، صفحة 137).

دور السلاطين في تشجيع الحركة العلمية:

إن نشاط الحركة العلمية والثقافية يعود بشكل مباشر إلى أمراء وسلاطين أي دولة واهتمامهم به ينعكس إيجابا على الرعية والعكس صحيح، ففي تلمسان شجع سلاطين بني عبد الواد على النشاط العلمي وحثوا عليه، "وقد أبدى السلاطين العبد الواديون اهتمامهم بتأسيس المدارس، وتقديرهم بالدور الذي تقوم به، (ميكوي، 2001، صفحة 136) كما كان معظمهم يولي اهتماما بالغاً للجانب الثقافي فحرصوا على بناء المدارس، وجلبوا إليها أكابر العلماء للتدريس بها، والإنفاق على طلبتها ومن هؤلاء يغمراسن بن زيان الذي كانت له رغبة كبيرة في أهل العلم فعمل على استقدامهم إلى تلمسان، (بوحسون، 2008، صفحة 19)، ولعل هذه المكانة الرائدة التي تمتعت بها مدينة تلمسان، ترجع بالدرجة الأولى إلى النزعة العلمية والثقافية، التي تتميز بها بعض سلاطين وأمراء بني زيان، الذين كان لهم إرادة قوية ورغبة شديدة وجهود مستمرة، امتازوا بها في ميدان الحركة الفكرية بصفة عامة ورعاية معتبرة (فيلاي، 2002، صفحة 319).

ولم يقتصر اهتمام سلاطين بني زيان بتشجيعه فحسب، بل كان منهم من وصل إلى درجة عالية من الفقه والأدب والشعر، ومثال ذلك أبو حمو موسى الثاني، (بن قدور، 2014، صفحة 27) الذي ذكره التنسي، "وله من النثر الرائق، والشعر الفائق، ما ارتفعت صناعته من بلاغة الملوك ومن العلم العقلي والنقلي ما جلا نوره عن الدنيا مدلهمت الحلوك، (التنسي، 2011، صفحة 161) فقد كان لأمراء بني زيان وسلاطينهم رعاية مستمرة للعلم والأدب، ومختلف علوم ذلك العصر، لأن من بينهم من كان ينتهي إليه فكان منهم الفقيه والأديب والشاعر والفنان، (فيلاي، 2002، صفحة 320) وقد اشتهر أبو حمو موسى الثاني في حيه للعلم وتبجيل أصحابه وكان له حضور مميز في الحياة الثقافية وتأثير إيجابي عليها بحكم إتباع الناس لموكلهم وأفعالهم ومن بين ما ألفه " نظم السلوك في سياسة الملوك " أتى فيه بالعجب ما أزرى بالسحر الحلال، (التنسي، 2011، صفحة 161)، (بوحسون، 2008، صفحة 21) وقد ألف قصيدة في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم يقول في مطلعها:

قِفَا بَيْنَ أَرْجَاءِ الْقِبَابِ وَالْحَيِّ * وَحَيِّ دِيَارِ الْخَيْبِ بِهَا حَيٌّ.

وَعَزَّجَ عَلَى نَجْدٍ وَسَلَعٍ وَرَامَةً * وَسَائِلٍ فَدَتُكَ النَّفْسُ فِي الْحَيِّ عَنْ مِي.

وَقُلْ ذَلِكَ الْمُضْنِي الْمُعَذَّبُ بِالْهَوَى * يَمُوتُ وَيَحْيَى فَأَرْثُ لِلْمَيِّتِ الْحَيِّ. (التنسي، 2011، صفحة 164، 168).
وقد حظي العلماء والطلبة في عهده بعطف وتشجيع كبيرين، ونال الكتاب والشعراء من عطائه وكرمه، وأضحت تلمسان في عهده مركزاً ثقافياً هاماً يضافي المراكز الثقافية الأخرى بالمغرب الإسلامي، ونبغ في عهده عدد كبير من العلماء والأدباء (بوحسون، 2008، صفحة 21)، ومنهم أيضاً أبو زيان محمد الثاني الذي لم تخل حضرته من مناظرة، ولا عمرت إلا بمذاكرة أو محاضرة، فلاحت للعام في أيامه شمس ... وقد ذكر أنه نسخ نسخاً من القرآن وحبسها، ونسخة من صحيح البخاري، ونسخاً من الشفاء لأبي الفضل عياض (التنسي، 2011، صفحة 211)، وله أيضاً مؤلف بعنوان كتاب الإشارة في حكم العقل بين النفس مطمئنة والنفس الأمارة (بوحسون، 2008، صفحة 21).

كما اشتهر العديد من السلاطين الزيانيين في مجال العلم وانبروا له وكانوا يحضرون جلسات العلم ويحاضرون ويفتون في مناسبات عديدة، ولم تنهم انشغالاتهم السياسية والعسكرية والإدارية على ذلك، فانعكست صورة حسنة على الحياة الثقافية بتلمسان، ومن أمثلة هؤلاء: السلطان أبي تاشفين الأول المولوع بالفن والعمران، والأمير الفقيه أبي محمد عبد الله بن عثمان بن يغمراسن المعروف بأبي حفص، والشيخ الفقيه أبي سليمان داوود علي كبير بني عبد الواد وشيخ دولتهم، والفقيه أبي عبد الله محمد بن السلطان أبي يحيى يغمراسن المعروف بابن شائشة، (فيلالي، 2002، صفحة 320) وقد امتاز أدباء تلمسان بنشاط في الإبداع النثري، نتيجة تشجيع السلاطين والأمراء لرجال هذا الفن، فشاع أسلوب السجع والمحسنات البديعية، إلى حد المبالغة في المراسلات والمكاتبات والخطب، وتألق الأدباء في فن التعبير، واتسم أسلوبهم بالقوة واللغة السليمة، (بن قدور، 2014، صفحة 34) فكان هؤلاء الأمراء والسلاطين وغيرهم يشجعون العلماء على الاجتهاد في الدرس، وتحرير الأفكار من الركود وتنشيط الحركة الفكرية بالعاصمة الزيانية، التي تتعلق بالعقيدة والتاريخ والعلوم العقلية الأخرى (فيلالي، 2002، صفحة 320)

المؤسسات التعليمية بتلمسان:

من بين مظاهر تطور وازدهار الحياة العلمية بتلمسان الزيانية كثرة المؤسسات التعليمية وتنوعها، وحاضرة تلمسان من أهم الحواضر التي حوت العديد من تلك المؤسسات التعليمية والتي اختلفت مهامها ووظائفها، وكان التعليم يتم داخل مؤسسات تعليمية من مساجد وكتاتيب وزوايا ومدارس، عمل السلاطين الزيانيين على تشييدها بنمط المدارس النظامية بالشرق سواء تدرس فيها النقلية أو العقلية، وقد ازدهرت المؤسسات التعليمية بتلمسان خلال العهد الزياني، حيث عرفت انتشاراً واسعاً، وشيدت العديد من المؤسسات التربوية والتعليمية، وتنوعت فشملت: المساجد، الزوايا، الكتاتيب، المدارس والمكتبات.

المدارس: أنشأت مدارس عديدة في تلمسان وعمت كل ضواحيها بهدف إيصال التعليم لكل فئات المجتمع، وقد ظهر نظام المدارس في مدينة تلمسان، ابتداء من القرن الأول إلى القرن الثامن الهجري، الرابع عشر ميلادي، وانتشرت عبر أحياء المدينة، خلال هذا القرن (فيلالي، 2002، صفحة 324)، ومن أبرز هذه المساجد، مدرسة ابني الإمام والتي بناها أبو حمو موسى الأول إجلالا وتقديراً لابني الإمام أبو زيد عبد الرحمن وأبو موسى عيسى نظير وفادتهما إليه وتدرسهما بالمدرسة فحملت اسميهما (التنسي، 2011، صفحة 139) (عبدلي، 2005، صفحة 125) (بن قدور، 2014، صفحة 53) (غرداين، صفحة 288)، والمدرسة التاشفينية (عبدلي، 2005، صفحة 125) (بن قدور، 2014، صفحة 65) (غرداين، صفحة 288)، التي بناها أبو تاشفين عبد الرحمن الأول وسبب بنائه للمدرسة المذكورة هو ملاحظته أن مدرسة ابني الإمام التي بناها والده لم تعد تكفي الأعداد الكبيرة للطلبة فأنشأ مدرسته بجانب المسجد الكبير بتلمسان، وأنفق أموالاً ضخمة، وجلب إليها الفنانين

والمهندسين لبنائها، ولما وفد عليه الفقيه العالم أبو موسى عمران المشدالي ولأه التدريس بها (بوحسون، 2008، صفحة 27)، وحسن ذلك كله ببناء المدرسة الجلیلة العدیمة النظیر التي بناها بإزاء الجامع الكبير (التنسی، 2011، صفحة 141)، إضافة إلى هاتین المدرستین نجد مدرسة الیعقوبیة (عبدلی، 2005، صفحة 134) (بوحسون، 2008، صفحة 28) ومدرسة سیدی لحسن ومدرسة أبي مدين بالعباد (بن قدور، 2014، صفحة 54) (بوحسون، 2008، صفحة 29)، وغیرها من المدارس حیث لا یتسع المقام لذكرها كلها، وكانت هذه المدارس مهمة عند سلاطین الدولة الزیانیة، فلم یکن دور المدرسة مقتصرًا على التدريس فقط، بل أيضا قیام العلماء بتحفیظ القرآن وتفسیره، فضلا عن القیان باحتفالات عند الانتهاء من حفظ القرآن، ویشرف السلطان بنفسه على هذه الاحتفالات (غرداین، صفحة 289)، والظاهر أن سلاطین بني زیان- کغیرهم من ملوک الدول الإسلامیة، كانوا یهدفون من وراء إنشاء هذه المدارس فی المقام الأول، إلى نشر التعلیم والثقافة من جهة، وتوجیه الرعیة وجهة تخدم مصلحة المذهب والدولة، وبعث الاستقرار والسکينة والهدوء والأمن بین الرعیة، ولهذا كانوا یشرفون على المدارس إشرافا مباشرا، ویؤكدون على مواضع الدراسة (فیلالی، 2002، صفحة 326).

أما بالنسبة للمساجد فقد شکلت النواة الأولى لتلقین مختلف العلوم خاصة العلوم الدینیة، ومن أهم المساجد فی تلمسان نذكر على سبیل الذکر لا الحصر، المسجد الجامع أو الأعظم (بوحسون، 2008، صفحة 33) (فیلالی، 2002، صفحة 146) (بن قدور، 2014، صفحة 57) (عبدلی، 2005، صفحة 111) (ابن مریم، 1908، صفحة 34) (بکای، 2008، صفحة 34)، وقد أدخل علیه المهندسون والمعماریون مسحة فنیة أندلسیة، حتی صار تحفة معماریة رائعة (فیلالی، 2002، صفحة 146)، ضف إلى ذلك مساجد أخرى مثل، مسجد سیدی أبي الحسن، ومسجد ابني الإمام الذی أضيف إلى المدرسة المسماة باسمیها، ومسجد إبراهيم المصمودی، ومسجد أبي مدين شعیب، ومسجد سید الحلوی، وغیرهم من المساجد التي كانت تنم عن مدى نشاط الحركة العلمیة والثقافیة، إضافة إلى ذلك فقد ألحقت بهذه المساجد الكتاتیب التي كانت تمثل التعلیم الابتدائی الذی عني به الصبیبة الصغار لتعلم مبادئ القراءة والكتابة وحفظ القرآن وكان یضم فنی الذکور والإناث وذلك لحدائة سنهم، كما وجدت زوايا ولكنها بشكل أقل مقارنة بالمدارس والمساجد والتي فی غالب الأحيان كانت تهتم بتحفیظ القرآن وغالبیة روادها من المناطق البعیده ومن الأقالیم المجاورة، وأصبحت تلمسان فی عهد بني زیان مركزا للإشعاع الثقافی بفضل ما أحدث بها من مدارس ومساجد وزوايا، فصارت مقصدا لطلاب العلم المغاربة والأندلسیین وحتى بعض المشارقة والسودانین (بالأعرج، 2008، صفحة 27).

الدور الثقافی للمرأة التلمسانیة:

لقد أعطى الإسلام للمرأة حقوقا كانت غائبة عنها ومنتهكة قبل مجيء الإسلام فحررها من العبودیة والوَاد والاستغلال، وبین لها ما علیها من واجبات وما لها من حقوق بل أن تکریم المرأة ورفاعة شأنها كان مع الإسلام، وأزال الفوارق، التي كانت بین النساء كما أزالها بین الرجال، إلا بالعمل الصالح والتقوی، وحث الرجال على معاشره النساء بالمعروف، وتركهن بالمعروف (فیلالی، 2002، صفحة 146)، ولم تستثنی القرآن الکریم ولا سنة الرسول صلی الله علیه وسلم المرأة فی حقها فی التعلیم ولم یقتصر طلب العلم على الرجال بل جعل طلب العلم فریضة على کل مسلم ومسلمة، فلم یفرق بینهم، حیث یقول المولى تبارک وتعالی " وَقُلْ رَبِّیْ زِدْنِیْ عِلْمًا " (طه، صفحة 114)، وفی آیه أخرى: "اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِیْ خَلَقَ، خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ" (العلق، صفحة 1، 2)، وبالرغم من القیود الاجتماعیة والسلطة المطلقة للزوج على زوجته وأسرته، التي خولها له العرف والتقالید، فإن ذلك لم یقلل من الدور الهام، الذی تضطلع به المرأة، (فیلالی، 2002، صفحة 292) وقد كان للمرأة التلمسانیة حضور فی الحیاة الثقافیة والعلمیة على غرار تواجدها فی الحیاة السیاسیة وحتى الحربیة،

ولعل أولى الإشارات التي تبين مساهمة المراة في النشاط العلمي والتعليمي هو ما كتب عن فاطمة القيروانية والتي كانت امرأة ثرية ... وتشير المصادر أنها وضعت أموالها في سبيل الخير والعلم، فبنت مسجدين أحدهما في عدوة الأندلسيين والأخر في عدوة القرويين (ابن القاضي، 1973، صفحة 78) (بان، صفحة 273).

والواقع أن المراة المسلمة كانت تسعى للعلم منذ بداية عصر النبوة إذ روي أن النساء كنّ يحتشدن لسماع النبي صلى الله عليه وسلم ويحضرن الصلاة الجامعة معه من أجل التعلم، فكان في صدر الإسلام مثقفات فضليات، وفيهن من يفضل الكثير من الرجال، إذا نظرنا في تاريخنا الإسلامي لوجدنا من العالمات في الحديث والفقه والأدب وغير ذلك (أميمة، 2011، صفحة 11) ولم يقتصر التعليم بكتاتيب المغرب الأوسط على الذكور فقط، بل كان للإناث أيضا حظ فيه، لأن الإسلام جعل طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة، إلا أن عددهن كان قليلا مقارنة بعدد الذكور، وكثيرا ما كانت الإناث تتوقفن عن الدراسة لتتحملن أشغال البيت، (بختاوي، 2011، صفحة 33) وكان أهل تلمسان يسمحون لبناتهم بالتعلم في هذه المرحلة، فكانت تحفظ أهم الكتب، التي يحفظها المتعلمون، وإذا لم تكن لنا أمثلة عن عدد البنات، اللاتي كن يدرسن في الكتاب والمدارس (فيلالي، 2002، صفحة 355)، فلذلك اقتصر تعليم النسوة على المرحلة الأولى الابتدائية لتعلم مبادئ القراءة والكتابة وحفظ جزء من القرآن، ومن هن من واصلت تعليمها الخاص، وذلك من خلال المطالعة داخل بيتها، وأغلب مثقفات تلمسان كن من بيوتات ذات صيت في العلم، فالأسرة العاملة يكون لها تأثير مباشر على أفراد العائلة بما فيهم الإناث، أما النساء من ذوي الطبقة العامة فكن يكتفين بتعلم أصول القراءة والكتابة، ثم يتفرغن لخدمة بيوتهن، أما بنات الحكام والفقهاء والعلماء، فكانت أوفر حظا، إذ كان يسمح لهن بالتعلم في بيوتهن على يد مدرسين خصوصيين (فيلالي، 2002، صفحة 355) (بختاوي، 2011، صفحة 33).

وبالرغم ما منحه الإسلام من حرية لتعلم المراة، فإن الظروف الاجتماعية وبعض العادات والتقاليد حالت دون تحقيق ذلك بشكل تام، حيث ظلت المراة محرومة من التعليم، ولعل من الأسباب التي حالت دون مواصلة المراة لمشوارها التعليمي، الصعوبات التي كانت تواجه طلبة العلم آنذاك، كالرحلة في طلب العلم عبر الحواضر الإسلامية وما يترتب عنها من مصاعب، تستعصي أحيانا على الرجال (بختاوي، 2011، صفحة 33)، والملاحظ أن الفقهاء لم يعارضوا تعليم المراة، إلا أنهم اشترطوا عدم اختلاطها مع الذكور، يقول القابسي في هذا الشأن: "من صلاحهن ومن حسن النظر لهن ألا يخلط بين الذكران والإناث، ويردف محمد بن سحنون قائلا: "أكره المعلم أن يعلم الجواري ويخلطن مع الغلمان لأن ذلك فساد لهن" (بختاوي، 2011، صفحة 33).

وقد انحصر دور المراة من الناحية التعليمية والثقافية تربية الأبناء وتدريبهم في المنزل ومتابعتهم لدروسهم وتحفيظهم لما تناولوه في الكتاتيب والمدارس والمساجد، وبخاصة إذا كانت المراة تحمل باعا في العلم فذلك يؤثر بشكل مباشر على تحصيل أبنائها للعلم وحرصها عليهم، كما أنها تقوم بدور المدرس والمعلم في البيت وبذلك فهي تقدم خدمات غير مباشرة في تنشيط الحياة الثقافية والعلمية بالمدينة، إذ أن تعلم المراة سيصيب الأسرة خيرا لا سيما وأنها محور البيت ومسؤولة عن تربية الأطفال وتعليمهم فإذا كانت الأم أو الزوجة متعلمة فإنها ستحسن تربية أولادها وتعرف كيفية التعامل مع زوجها وهنا تكون الأسرة فعالة في تربية أبنائها وتعليمهم بحيث يكون نافعين للأمة والمجتمع (إحسان، صفحة 219).

نماذج عن النساء العالمات بتلمسان:

عرفت تلمسان عدة نسوة برزن في مجال العلم وأسهمن بطريقة مباشرة أو غير مباشرة في تنشيط الحركة الثقافية بالدولة الزبانية ومنهن نذكر:

ومنهن المرأة الصالحة الفقيرة، المعروفة بالمؤمنة التلمسانية التي انتقلت إلى فاس لطلب العلم، فعكفت على قراءة القرآن، ومجالسة كبار الفقهاء ومناقشتهم في المسائل الشرعية والفقهية والأخلاق، (فيلاي، 2002، صفحة 259) وقد ذكرها صاحب الأنس الفقير " ورأيت منهم بفاس المرأة الصالحة مؤمنة التلمسانية، وتبركت بها وما زالت على ما تقرر عندي، تخصني بالدعاء في ظهر الغيب ... وكانت على زهد وتقشف وعبادة وورع (ابن قنفذ، صفحة 80).

السيدة، فاطمة بنت أبي زيد النجار، وزوجة أبي عبد الله محمد الثاني بن مرزوق جد الخطيب، وأمها هي منية بنت حسين من الصالحات (ابن قنفذ، صفحة 294).

ومنهن فاطمة بنت الشيخ العالم أبي عبد الله محمد بن عبد العزيز وبنو عبد العزيز، بيت من بيوتات تلمسان العريقة، أهل علم وعدالة وقضاء وثقة وأمانة، وأنها حفيدة أبي العباس ابن صاحب الصلاة (ابن قنفذ، صفحة 294).

ومنهن الشيخة الصالحة عائشة بنت ابن الأكحل، وكانت هي الأخرى من خيار المثقفات الصالحات، وأيضا المرأة الصالحة " ستم" بنت الشيخ أبي علي حسين بن الجلاب العالم الفقيه صاحب القلم والمال (ابن قنفذ، صفحة 294).

ومنهن أم الفتح، وهي أم خال الخطيب بن مرزوق، وكانت من الصالحات حجت وزار، وكانت أم الفتح قد ربت الخطيب بن مرزوق الذي حج رفقتها وعمره لا يتعدى اثني عشرة سنة (ابن قنفذ، صفحة 294).

ومنهن زوجة أبي عبد الله محمد الثاني بن مرزوق، بنت الفقيه أبي عبد الله الكتاني، فقد كانت صالحة ملازمة للعبادة رفقة زوجها، ومنهن أيضا عائشة بنت الفقيه الصالح القاضي أحمد بن الحسن المديوني، التي كانت صالحة، الفت مجموعة من الأدعية اختارتها، تتميز بقوة في تعبير الرؤيا، اكتسبتها من كثرة مطالعتها لكتب الفن (ابن قنفذ، صفحة 295، 296).

وأورد عبد العزيز فيلاي نساء أخريات مثل: الفقيهة أم البنين والسيدة زينب بنت الشيخ الصالح أبي إسحاق إبراهيم بن محمد الدلايلي، وأم الفتح المدعوة بفتحون، والتي كانت صالحة مستجابة الدعاء زاهدة في الدنيا، عاكفة على العبادة والوعظ أم الفقيه أبي إسحاق (ابن قنفذ، صفحة 296).

خاتمة:

من خلال معالجتنا لهذه الدراسة المتعلقة بدور المرأة في الحياة الثقافية والعلمية في المغرب الأوسط (الجزائر حاليا)، الدولة الزيانية أنموذجا، خلصنا إلى عدة نتائج أبرزها:

- مكانة الدولة الزيانية من حيث الموقع الجغرافي لعاصمتها وبروزها كحاضرة ثقافية جعل العلماء طلبة العلم يتوافدون ويشدون الرحال إليها، وبدورهم قد أثروا الحياة الثقافية بها.
- كثرة الفقهاء والعلماء والأدباء بتلمسان، أهلها بان تكون نقطة جلب واستقطاب وإقبال مختلف طوائف المجتمع على العلم وتحصيله.
- المؤسسات التعليمية الكثيرة والمتنوعة التي عرفتها الدولة الزيانية من مدارس وكتاتيب وزوايا ومساجد، واحتوائها على مختلف العلوم والفنون، وكذا تنوع التعليم والمناهج.
- الدور الفعال والمميز الذي اضطلع به سلاطين بني زيان من خلال تشجيعهم اللامتناهي للعلم والحث عليه وجلب العلماء وإعلاء شأنهم وبناء المؤسسات التعليمية، بل كان منهم من هو في حد ذاته عالما أو شاعرا أو فقيها، فانعكست سياستهم في حب العلم والتشجيع عليه على الدولة والرعية بما فيها العنصر النسوي.
- بروز المرأة في المجتمع الزياني كعنصر فعال في تنشيط الحركة الثقافية، وترك بصمة في واضحة في ميدان العلم من خلال ما كانت تقدمه من خدمة في سبيل ذلك، سواء بطريقة مباشرة كظهور عدة عالمات، أو

بصورة غير مباشرة من خلال الاهتمام بالصبيّة في المنزل بعد خروجهم من الكتاب أو المسجد فلعبت بذلك دور المراقب والمعلم.

- ظهور عدّة عالمات ومثقفات وزاهدات وبخاصة في المجال الديني ومجال الفقه.

القرآن الكريم.

قائمة المصادر والمراجع:

- (1) ابن القاضي أحمد بن محمد، جذوة الاقتباس في ذكر من حلّ من الأعلام بمدينة فاس، دار المنصور للطباعة، الرباط، المغرب، 1973.
- (2) ابن مريم الشريف المديوني التلمساني، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، مر، ابن أبي شنب، المطبعة الثعالبية، الجزائر، 1908.
- (3) أبي العباس أحمد الخطيب الشهير بابن قنفذ القسنطيني، أنس الفقير وعز الحقيّر، تح، محمد الفاسي وأدولف فور، المركز الجامعي للبحث العلمي، مطبعة أكادال، الرباط.
- (4) أبي عبيد البكري، المغرب في ذكر إفريقية والمغرب وهو جزء من كتاب المسالك والممالك، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.
- (5) إحسان محمد حسن، علم اجتماع المرأة، دار وائل، عمان، ط، 01.
- (6) الأخضر عبدلي، الحياة الثقافية بالمغرب الأوسط في عهد بني زيان، رسالة دكتوراه في التاريخ الإسلامي، جامعة أبو بكر بلقايد، تلمسان، 2004، 2005.
- (7) أميمة محمد الحسن علي النقي، حقوق المرأة بين الإسلام وأهواء الغرب، مجلة العلوم والبحوث الإسلامية، ع، 03، أوت، 2011.
- (8) بان علي محمد، جوانب حضارية للمرأة في المغرب الأقصى خلال الدولة المرابطية، جامعة بغداد، كلية التربية للبنات، مجلة الجامعة العراقية، ع، 35، ص، 273.
- (9) بن سهلة ثاني سيد أحمد، المؤثرات الحضارية الأندلسية على الهوية الثقافية في الجزائر، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، 2013، 2014.
- (10) بن قدور فاطمة، الحياة الأدبية والفكرية على عهد الزيانيين، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، 2013، 2014.
- (11) عبد الرحمن بالأعرج، العلاقات الثقافية بين دولة بني زيان والمماليك، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، رسالة ماجستير، 2007، 2008.
- (12) عبد الرحمن بن خلدون، رحلة ابن خلدون، تح: محمد بن تاويت الطنجي، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط، 01، 2004.
- (13) عبد العزيز فيلاي، تلمسان في العهد الزياني، موفم للنشر والتوزيع، الجزائر، 2002.
- (14) عبد القادر بوحسون، العلاقات الثقافية بين المغرب الأوسط والأندلس خلال العهد الزياني، رسالة ماجستير، جامعة أبو بكر بلقايد، تلمسان، 2007، 2008.
- (15) قاسمي بختاوي، التعليم بالكتاب في المغرب الأوسط أيام حكم بني عبد الواد، مجلة الأصالة، السنة الرابعة، ع، 12، جوان، 2011.
- (16) محمد بن عبد الله التتسي، تاريخ بني زيان ملوك تلمسان مقتطف من كتاب نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان، تح وتع، محمد آغا بوعباد، موفم للنشر، الجزائر، 2011.
- (17) محمد بن عبد المنعم الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، تح، إحسان عباس، مكتبة لبنان، ط، 02، 1984.
- (18) مغنية غرداين، قراءة في الحركة العلمية بتلمسان الزيانية، مجلة علوم الإنسان والمجتمع، جامعة بسكرة الجزائر.
- (19) ميكوي محمد، الأوضاع السياسية والثقافية للدولة العبد الوادية منذ قيامها حتى نهاية عهد أبي تاشفين الأول، رسالة ماجستير، جامعة أبو بكر بلقايد، تلمسان، 2000، 2001.
- (20) هوارية بكاي، العلاقات الزيانية المرينية سياسيا وثقافيا، جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان، رسالة ماجستير، 2007، 2008.